أى : انفصلت القشرة عن الثمرة. والقشرة - كما نعلم - مخلوقة لصيانة الثـمرة ؛ فإذا فسـقت عنها تلفت الثمرة . والإنسـان إذا فسق خرج عن طاعة الله .

ثم يأتى الله بما أعدَّه للمنافقين فيقول :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾

والوعد للخير والوعيد للشر ، ويقال : « أوعد » فى الشر ، وفى بعض الأحيان تستخدم كلمة « وَعَدَ » بدلاً من « أوعد » حتى إذا استمع السامع لها يتوقع خيراً . فإذا جاء الأمر بالعذاب كان ذلك أليماً على النفس. وهذا استهزاء بالمنافقين والكفار ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ... ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف]

كأن الله أعطاهم وعداً أنهم إن يستغيثوا سيأتيهم الغوث ثم يقلبه عليهم ويجعله ماء يغلى ويشوى وجوههم - والعياذ بالله - ونلحظ أيضاً أن الحق سبحانه قد قدَّم المنافقين والمنافقات على الكفار، وهذا يؤيده قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴿١٤٥﴾ ﴾

[النساء]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

وهكذا نرى أن المنافقين موقعهم الدرك الأسفل من النار. والكفار موقعهم الدرك الأعلى ، وقد يسأل سائل : كيف يكون ذلك ؟

ونقول: إن الكافر بكفره قد أعطانا مناعة ؛ فلأنه أعلن الكفر فنحن نأخذ حذرنا دائماً منه ، فلا يلحق بنا إلا ضرراً محدوداً ، أما المنافق فهو قد تظاهر بالإيمان فآمناه ، ويستطيع أن يلحق بنا شرّاً رهيباً ؛ لأنه بحكم ما أخذه من أمان منا ، يعرف أسرارنا ومواطن الضعف فينا ، وقد تكون طعنته قاتلة.

والعدو الخفى - كما تعلم - شر من العدو الظاهر ؛ لأننا نكون على حذر من العدو الظاهر ، لكننا لا نأخذ الحذر من العدو الخفى ، وهو يعرف ما فى نفسى ، ويعرف كل تحركاتى ، ويستطيع أن يغدر بى فى أى وقت دون أن أكون متنبهاً لهذا الغدر.

ولذلك إذا أراد قوم أن يكيدوا للإسلام دون أن يسلموا ، فكيدهم يفشل ؛ لأنهم وهم على الكفر سيجدون مناعة عند المسلمين من الاستماع إليهم . أما إن احتالوا ودخلوا على الإسلام من داخل المسلمين أنفسهم ، فهم يُجنِّدون عدداً من ضعاف الإيمان ليطعنوا فى هذا الدين ، وتكون طعنات هؤلاء المسلمين بالاسم ، هى القاتلة وهى المؤثرة.

هنا نلاحظ فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ولم يقل الحق بالخلود أبداً فى النار إلا فى ثلاث آيات فقط فى القرآن الكريم.

فى قــوله تعــالى : ﴿إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩)﴾ [النساء]

وقوله عز وجل : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لاَّ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا (٦٥)﴾ [الأحزاب]

وقوله جل جلاله : ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣)﴾ [الجن]

و لكنه ذكر الخلود فى الجنة أبداً مرات كثيرة [1].

ونقـول: إن الجنة هى بُشْرى النعيم للمـؤمنين . ويريد الحق سبحـانه وتعالى أن يؤنس خلقه بالنعيم الذى ينتظرهم ، ولكن بالنسبة للنار فهى دار عذاب ، وتأبى رحمة الله وهو الخالق الرحيم بعباده ألا يُذكر الخلود فى النار متبوعاً بكلمة أبداً إلا فى ثلاث آيات ؛ حتى لا يظن الكفار أن الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ خَالِدِينَ ﴾ دون ذكر الأبدية أنه خلود مؤقت فى النار ؛ لذلك يُذكِّرهم بأنه خلود أبدى . وفى نفس الوقت تأبى رحـمته سبحـانه وتعالى أن يكون ذلك فى كل آية تُذكَر فيها النار ؛ حتى يفتح طريق التوبة والرحمة لكل عاصٍ ، عَلَّه يتوب ويرجع إلى الله.

والحق سبحانه يقول:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨)﴾ [هود]

(١) ذكر الخلود فى الجنة أبداً فى ٨ مواضع من القرآن الكريم [النساء: ٥٧ ، ١٢٢] ، [المائدة: ١١٩] ، [التوبة: ١٢ ، ١٠٠] ، [التغابن: ٩] ، [الطلاق: ١١] ، [البينة: ٨] .

وثار الحديث بين المستشرقين : كيف يقول الحق سبحانه وتعالى عن النار والجنة خالدين فيها أبداً ؟ ثم يأتى فى هذه الآيات ويستثنى ويقول: ﴿إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ والاستثناء وارد على المؤمن والكافر ؟

ونقول: إن الذين يثيرون هذا الاعتراض لم يفهموا القرآن ولا المنهج ، فالذين سيدخلون النار قسمان : قسم آمن ولكنه عصى وارتكب سيئات ؛ فيُعذَّب فى النار على قَدْر سيئاته ، ثم يُخرجه الله من النار إلى الجنة لأنه مؤمن ، وقسم آخر كافر أو منافق ، الاثنان يدخلان النار ، ولكن أولهما - وهو المؤمن - يُعذَّب على قَدْر سيئاته . والثانى يبقى خالداً فيها لأنه كفر أو نافق .

إذن: فالمؤمن العاصى لا يخلد فى النار ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ لأنه لن يبقى فى النار إلا بقدر سيئاته ، فكأن خلوده فى النار من البداية مؤقت وهو لا يبقى خالداً فيها؛ لأن مشيئة الله سبحانه وتعالى تدركه ، فتخرجه من النار إلى الجنة.

أما الكافر والمنافق فهما خالدان فى النار لا يخرجان منها ، فكأن هناك من يدخل النار ولا يكون خلوده فيها أبديّاً ، وهذا هو المؤمن العاصى. وهناك من يدخل النار ويخلد فيها أبداً ، وهذا هو الكافر أو المنافق.

وإذا جئنا إلى الجنة ، فهناك من سيدخل فيها خالداً أبداً ؛ أى منذ انتهاء الحساب إلى ما لا نهاية . وهذا هو المؤمن الذى غلبت حسناته سيئاته وأدخله الحق الجنة . ولكن هناك من سيدخل الجنة ، ولكن خلوده فيها يكون ناقصاً وهو المؤمن العاصى ؛ لأنه سيدخل النار أولاً ليجازى بمعاصيه.

إذن : فالمؤمن العاصى خلوده فى النار ناقص ؛ لأنه لن يبقى فيها أبداً. وكذلك يفتقد الخلود فى الجنة فور انتهاء لحظة الحساب ؛ لأنه لن يدخل

فيها بعد الحساب مباشرة ، بل سيدخل النار أولاً بقدر معاصيه . فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ينطبق على عصاة المؤمنين الذين سيأخذون حظهم من العذاب أولاً على قدر سيئاتهم ، ثم بعد ذلك يدخلون الجنة [1].

وقول الحق عن خلود المنافقين في النار : ﴿ هِيَ حَسْبُهُمْ ﴾ أي تكفيهم ، كأن يكون هناك إنسان شرير وأنت تريد أن تؤدبه ، فيأتي إنسان قوي ويقول لك: اتركه لي ، أنا وحدي كفيل أن أؤدبه ، فتقول: هذا حسبه ، أي يكفيه هذا ؛ ليتم التأديب المطلوب . كذلك النار ، فسبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنها تكفيهم ، أي : أن ما سيعانونه فيها من ألم وعذاب كافٍ جداً لمجازاتهم على ما فعلوه من سيئات .

ثم يقول الحق: ﴿ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي : طردهم من رحمته ومن طاعته فلا يقبل لهم توبة ولا عودة ؛ لأن مكان التوبة هو الدنيا . وأما ما بعد الموت والآخرة ، فلا محل فيهما لتوبة ولا رجوع عن معصية ؛ لأن زمان ذلك قد انتهى . لذلك فالعذاب لمن لم يَتُبْ في الدنيا هو عذاب مقيم في الآخرة .

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ وقد وصف الحق عذاب جهنم مرة بأنه عذاب أليم ، ومرة بأنه عذاب مهين ، ومرة بأنه عذاب مقيم ؛ لأنه يريدنا أن نعلم أن كل أنواع العذاب ستصيب أهل جهنم ، فإن كان الإنسان مُتجلِّداً له

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٦٠) : « هذا الذي عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً في تفسير هذه الآية الكريمة » . وقد أضاف الإمام أبو يحيى الأنصاري معنى جميلاً في كتابه : « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن » ص ١٩٥ فقال : « هو استثناء من الخلود في عذاب أهل النار ، ومن الخلود في نعيم أهل الجنة ؛ لأن أهل النار لا يخلدون في عذابها وحده ، بل يعذبون بالزمهرير ، وبأنواع أخر من العذاب ، وبما هو أشد من ذلك ، وهو سخط الله عليهم . وأهل الجنة لا يخلدون في نعيمها وحده ، بل ينعمون بالرضوان ، والنظر إلى وجهه الكريم وغير ذلك » .

كبرياء يتحمل الألم الشديد ولا يُظهر ما يعانى ، فالعذاب لن يكون أليماً فقط ، ولكنه مهين أيضاً ، والهوانَ هو إيلام النفس ، وإن كان ذا كبرياء مُتجلِّد فإنه يُجَرُّ على وجهه ويُهَانُ . وبعض الناس قد يتحمل الألم ، ولكن لا يتحمل الإهانة التى تصيبه بعذاب نفسى أكثر من العذاب البدنى ، فقد تأتى لكبير قوم وتهينه أمام أتباعه، أو لأب وتهينه أمام أولاده ، ويكون هذا أكثر إيلاماً لنفسه من أن تضربه .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أى : عذاب دائم ، فإن كان أليماً يبقى الألم على شدته ولا يُخفَّف أبداً ، وإن كان مهيناً تبقى الإهانة مستمرة ولا تزول أبداً . وفى كلتا الحالتين هو عذاب فيه إقامة وفيه دوام واستمرار .

ثم يخاطب الحق سبحانه وتعالى الكفار والمنافقين ، ويقول جل وعلا للخارجين عن منهجه :

﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً
وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم
بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ
وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ
فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

وهنا يُذكِّرهم سبحانه بمواكب الكفر التى صاحبت الرسل السابقين ، وقد كانت هذه المواكب فيها المنافقون وفيها الكفار ، وسبحانه وتعالى عندما يرسل رسولاً يؤيده ضد أعداء منهج الخير .

والحق سبحانه يريدنا أن نتذكر ما حدث للأمم السابقة الذين كانوا أكثر قوة وأكثر أموالاً وأولاداً من أولئك الكفار والمنافقين الذين يواجهون رسول الله ﷺ. ولنقرأ قول الحق جل جلاله:

﴿ وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) ﴾
[الفجر]

ونحن لم نشهد ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ التي وصفها الحق سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾، ولكن القرآن أكد لنا أنها وصلت إلى درجة من الحضارة التي لم يصل إليها أحد. وقد يتساءل بعض الناس: أين ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ من حضارات اليوم ؟. ونقول: إن هناك أسراراً لله في كونه قد أعطاها بعض خلقه ولم يُعْطها لأحد حتى الآن.

وإذا نظرنا إلى الفراعنة مثلاً نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد وصفهم في القرآن بقوله: ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾. والأهرامات أوتاد، والمسلات أوتاد، وما زالت علوم حضارة الفراعنة تغيب عن البشر حتى الآن، فهناك من مظاهر هذه الحضارة ما نعجز عنه حتى الآن، مثل سر التحنيط وبناء الأهرام؛ فهذه الكتل الحجرية الضخمة التي ارتفعت ويمسك بعضها البعض، دون أية مواد مثبتة، وما زال العلم الحديث عاجزاً حتى اليوم عن أن يوجد هرماً مبنيـاً بنفس طريقة قدماء المصريين دون استخدام أي مواد

مثبتة ، ومع ذلك فهؤلاء الفراعنة لم يستطيعوا أن يسودوا الكون رغم قوتهم وحضارتهم ، بل أخذهم الله أخْذَ عزيز مقتدر . وجاءت الرمال فدفنت حضارتهم . ثم شاء الله لنا أن نكشف عن جزء بسيط منها ؛ فإذا بهذا الجزء البسيط يبهر الدنيا كلها. وإذا بالعالم كله يأتى ليشاهد حضارة الفراعنة ، ويتعجب من هذا الفن وهذا الرقى فى العلم . فإذا كانت هذه هى حضارة آل فرعون ، فما بالك بحضارة إرم ذات العماد التى لم يُخْلَق مثلها فى البلاد ؟

وهكذا نعلم أن بعض حضارة إرم ذات العماد ما زالت مخفية حتى الآن لا يعلم أحد عنها شيئاً . ومدفونة فى باطن الأرض. ولعل الله سبحانه وتعالى قد أبقاها ليكشفها فى زمن قادم يزداد فيه بُعْد الناس عن الدين ؛ لأن الإنسان كلما تقدم فى الحضارة ابتعد عن الإيمان ؛ لإحساسه بأنه متمكن فى الكون ؛ مسيطر عليه ؛ حينئذ ربما يكشف الحق سبحانه وتعالى عن حضارة ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ ليعرف الناس أن ما وصلوا إليه لا يساوى شيئاً مما كشفه الله لهؤلاء القوم.

وإن سأل سائل : أين هى حضارة ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ ؟ نقول له : إنها فى وادى الأحقاف [1] والهبّة الواحدة من الرياح فى هذا الوادى تستر قافلة بأكملها ؛ أى إذا هبّت ريح ، فإن الرمال لا تدارى الطريق وحده ؛ ولكنها تدارى القافلة كلها ، فكم عاصفة رملية هبّت على المكان الذى كانت تقطنه ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ فأخفتْ حضارتهم ؟ لابد إذن من حفريات على مستوى عميق جـدّاً لنعثر على تلك الحضارة ؛ لأننا نعلم ونرى أن كل الكشوف الأثرية تحتاج أن نحفر لها ؛ لأن الرمال تتراكم فوق

(١) الأحقاف : هى صحراء مترامية الأطراف بظاهر بلاد اليمن كانت عاد تنزل بها . والأحقاف فى اللغة هى: ما اعوج من الرمال واستطال .

الآثار . بل إننا نرى البيوت القديمة فى القرى ، لابد أن تنزل لها بدرجة أو درجتين لتدخل إليها من الباب ؛ لأن العوامل الطبيعية والرصف وغير ذلك تزيد من علو الطريق . فإذا كان هذا هو عمل الرياح العادية فى وقت قصير ، فما بالك بالأعاصير فى أزمان طويلة ؟

وأنت إذا سافرت وأغلقت نوافذ مسكنك إغلاقاً مُحْكماً ، وعُدْتَ بعد شهر واحد تجد الأثاث مغطى بطبقة من التراب ، فإن غبْتَ عاماً وجدت كمية كثيفة من التراب ، هذا بالنسبة لبيت محكم الإغْلاق ، فما بالك بحضارة معرضة لكل هذه الظواهر الطبيعية ، وتُسْتر كل شهر بطبقة جديدة كثيفة من التراب ؟

ويقول سبحانه : ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً ﴾ أى : أن حضارتهم أكبر من حضارتنا ؛ لأن الحضارة كلما كانت متقدمة كانت الأمة قوية ، وكلما تأخر شعب حضاريّاً كان ضعيفاً .

إذن : فالذين من قبلنا كانوا أكثر حضارة وأكثر أموالاً وأولاداً . ولسائل أن يسأل : كيف تكون لهم كثرة أولاد والعالم يزداد عدداً كل عام ، وكيف تكون لهم كثرة أموال ونحن نكتشف كنوز الأرض جيلاً بعد جيل ؟ نقول : لا تأخذ الكثرة على أنها كثرة عددية ، بل خذها بنسبتها ؛ لأنك إذا جئت بمائة شخص ووضعتهم فى حجرة ، يقال عنهم : « كثير » . فإذا أخذت كل واحد منهم ووضعته فى مكان بعيد عن الآخر يكون العدد قليلاً . وكان العالم فى الماضى مسكوناً بأماكن محدودة ، بدليل أننا اكتشفنا قارات وأماكن لم يكن يعرفها أحد .

إذن : فالكثرة هنا بالنسبة للحيز ، وهم فى حيزهم الذى يعيشون فيه كانوا كثرة ، وبالأموال التى كانت بين أيديهم بعددهم المحدود كانوا أكثر منكم أموالاً بعددكم الكبير ، أى أن نصيب الفرد كان أكبر ، وكذلك الأولاد .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ ﴾ والخلاق هو النصيب أو الحظ الذى يصيب الإنسان من أى نعمة ، ويقول سبحانه :

﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ (٢٠٠) ﴾

[البقرة].

أى : ليس له فى الآخرة نصيب من نعم الله ، فالذين عملوا للدنيا وحدها ولم يكن فى بالهم الله ، يأبى عدل الحق سبحانه وتعالى أن يضيع عليهم نتيجة عملهم ، ولذلك فهو يعطيه لهم فى الدنيا ، ولكن من يعمل وفى باله الله يعطيه الله من الدنيا ويُوفِّيه أجره فى الآخرة .

ولذلك نجد بعضاً من المؤمنين يسألون : كيف يكون الكفار أحسن حالاً من المؤمنين فى الحضارة المادية ، ولماذا يأخذ الكفار من خيرات الأرض ما يكفيهم ويزيد ، لدرجة أنهم فى بعض البلاد يُلْقون بالفائض فى البحر ، بينما نجد المسلمين يعيشون فى حضارة مادية محدودة ، ويستوردون ما يأكلون ؟

ولنتذكر الحقيقة الواضحة التى أكررها دائماً لكل مسلم : إياك أن يغيب عنك أن هناك " عطاء للرب" و "عطاء للإله" . فعطاء الرب للجميع ؛ لأن الرب هو الذى خلق وربَّى ، وأمدنا بالأقوات ، وسبحانه ليس رب المؤمن فقط . لكنه رب المؤمن والكافر . ولذلك إذا أخذ المؤمن أو الكافر بالأسباب أعطاه الله ؛ فالأرض تعطى محصولاً وفيراً لمن يحسن زراعتها وينتقى لها التقاوى ويرعاها ، لا تفرق فى ذلك بين مؤمن وكافر ، والكون يعطى كنوزه لمن يبحث عنها ويجتهد ، لا فرق بين مؤمن وكافر ، وهذا عطاء الربوبية .

أما عطاء الألوهية فقد خصَّ الله سبحانه وتعالى به عباده المؤمنين الذين يتبعون منهجه ، هذا عطاء العبادة يجزى به الإنسان فى الآخرة ، والذى

يأخذ العطاءين هو السعيد ، يأخذ عطاء الربوبية فيستغل أسباب الحياة فيعطيه الله خير الدنيا ، ويأخذ عطاء الألوهية بأن يجعل حياته وفقاً لمنهج الله ، فيعطيه الله النعيم فى الآخرة.

والأسباب فى الدنيا لا تفرق بين مؤمن وكافر ، فالشمس تشرق على المؤمن والكافر ، والمطر ينزل على الطائع والعاصى ؛ لأن هذا عطاء ربوبية . من أحسن استخدامه أعطاه بصرف النظر عن الطاعة أو المعصية.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان]

لماذا ؟ لأنك عملت للدنيا وحدها . . وكنت تعمل ليقال إنك مخترع أو مكتشف . . أو لتحصل على الأموال أو الأوسمة . . أو النفوذ والجاه فى الدنيا ، ولكنك لم تكن تعمل وفى بالك الله .

وبعض الناس يأتى ليقول لك : هل الذى اكتشف علاجاً لميكروب كان يفتك بالبشر ، أو اكتشف الكهرباء أو اكتشف كذا مما أسعد البشرية كلها ، أيكون هذا كافراً ويُعذَّب فى النار ؟

نقول له : نعم ؛ لأنه فعل هذا وليس فى باله الله . . وإنما فعله وفى باله الحصول على المجد أو المال أو النفوذ فى الأرض ؛ ولذلك أعطاه الله ، ما عمل من أجله ، فأصبح له ثروة طائلة وتاريخ يدرس فى المدارس ، وأعطوه النياشين وأطلقوا اسمه على الشوارع والميادين.

فما دام قد عمل للدنيا فإن الله سبحانه وتعالى يعطيه أجره فى الدنيا ، ولكن الذى عمل وفى باله الله يأخذ من الدنيا بالأسباب ، ولكنه يأخذ فى الآخرة من المسبب مباشرة ؟ فالإنسان قد ارتقى حضارياً ، حتى إنك الآن فى بعض الدول المتقدمة تضغط زراً يعطى لك القهوة أو الشاى ،

وآخر يعطيك الطعام.. نقول: إن هذا كله متاع الأسباب، فقبل أن تضغط أنت هذا الزر، كان هناك بشر أعدّوا لك القهوة أو الطعام، والآلة أوصلته إليك.

ولكن مهما ارتقى الإنسان تكنولوجيّاً فلن يأتى اليوم الذى يجعل الشىء يخطر ببالك فتجده أمامك.. ولكنك فى الجنة بمجرد أن يخطر الشىء على بالك تجده أمامك[1]؛ لأن عطاء الدنيا عطاء أسباب، وعطاء الآخرة عطاء مسبب.

فالله سبحانه وتعالى أعطانا الاختيار والأسباب فى الدنيا، ولكن فى الآخرة يأتى لك الشىء بلا عمل، مختلفاً فى مذاقه ورائحته عن الدنيا.

إذن: فالذى يعمل وفى باله الأسباب فقط يعطى فى الدنيا، والذى يعمل وفى باله خالق الأسباب يعطى فى الحياتين؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ ... (٣٩) ﴾ [النور]

والسراب الذى تمشى له متخيلاً أنه ماء فإنك حين تصل إليه لا تجده شيئاً، هكذا الكافر يوم القيامة، يفاجأ بأن الله موجود، وجد الله سبحانه الذى لم يؤمن به، ويطلب من الله الأجر فيقال له: أجرك ممن عملت له. وما دمت لم تعمل لله فلا يوجد لك أجر فى الآخرة؛ لأن الله هو الذى يجزى فى الآخرة.

(١) ورد فى هذا حديث عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشوياً» أخرجه البزار (٣٥٣٢ - كشف الأستار). فيه حميد بن عطاء الأعرج. قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٤١٤): ضعيف. ولكن قال الذهبى فى الميزان (٢/ ١٣٧): متروك. فالحديث ضعيف.

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ ﴾ أي: أنهم أخذوا نصيبهم من الدنيا، ولكن الآخرة ليس لهم فيها نصيب؛ لأن النصيب في الآخرة يأتي بـ «افعل» و«لا تفعل» في التكليف، فإذا فعلت الاثنين ترتقي، بدليل أن حضارة المسلمين استمرت ألف سنة حين أخذوا بالأسباب، ولم ينسوا المسبب.. بل حرسوا الأسباب بقيم المسبب في «افعل» و«لا تفعل»؛ فملكوا الدنيا ألف سنة. ولا توجد حضارة مكثت مثل هذه المدة، ولئن زالت الحضارة من أمم الإسلام سياسيّاً، فقد بقي دينهم في نفوسهم، ولا توجد حضارة عاشت مبادئها بعد زوال الحضارة إلا الإسلام. فقد بقي منارة هادية، رغم ضعف المسلمين سياسيّاً.

وقول الحق سبحانه: ﴿ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ ﴾ أي: خذوا نصيبكم من الدنيا بالأسباب، ولكن تذكروا أنه استمتاع موقوت بزمن لا يملكه الإنسان؛ لأن عمر الفرد في الدنيا هو بعمر حياته فيها لا بعمر الدنيا نفسها؛ لأن الدنيا لك ولمن يأتي من بعدك. وعمرك فيها له حدود لا تعرف طوله. هل هو شهر أم سنة أم عشر سنين أم مائة عام؟ إذن: عمرك في الدنيا مظنون موقوت، فعملك لأسباب الدنيا محدود المدة، بمقدار عمرك في الدنيا.

وهَبْ أن عمرك طال وصرت من المعمرين فسوف ينتهي حتماً.

ويقول الحق سبحانه: ﴿ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ ﴾ أي: أنتم تبعتموهم ومشيتم على أثرهم، وكلما فعلوا إثماً فعلتم إثماً، وهم خاضوا في الأنبياء، وأنتم خضتم أيضاً في الأنبياء، فأنتم شركاء الذين ذهبوا من

قبـلكم فى أنكم أخذتم نصيبكم وحظكم فى الدنيا ، ولم تدعوا للآخرة شيئاً . فلكم نصيب فيما فعلوا ؛ هذه واحدة . أما الثانية : فقد بدلتم الحق بالباطل . إذن : فأنتم أخذتم المقدمات مثلهم فقادتكم إلى نفس النتائج .

﴿ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ أي : فـشلت وضـاعت أعمـالكم فى الدنيـا ، كمـا حبطت أعـمال من سبقـوكم فى الدنيا وكـانوا قسمين : قسماً وقف يحارب دعوة الخير حتى قتل ولم يأخذ شيئاً ، وقسماً لم ينله قتل فأفلت بدنياه ، ولكنه خرج منها دون أن يفعل شيئاً لآخرته فلم يأخذ شيئاً فى الآخرة .

فـالذين حـبطت أعـمـالهم فى الدنيـا هم الذين قُتلوا وأسـروا وشُـردوا وغنمت أموالهم بأيدى المؤمنين ، فكأنهم خسـروا الدنيـا فلم يأخـذوا من متـاعهـا شيـئاً ،وأيضاً خسـروا الآخـرة ، وهذا هو الخسـران المبين ، أى الخسران المحيط بطرفى الزمن ؛ الدنيا والآخرة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

وبعد أن ذكر الحق فى الآية السابقة القضية العامة فى قوله : ﴿ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ ﴾ جاء فى هذه الآية بالأعلام والأشخاص وهم الرسل ومن عاداهم فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ وساعة يقول : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ ﴾ فهنا همزة الاستفهام ، ولام النفى. والهمزة تنفى هذا النفي، أى أتاهم نبأ هؤلاء. وحين ينفى النفى فى أمر فالمراد إثبات الأمر ، وأنت لا تستفهم الاستفهام الإنكارى ، إلا وأنت واثق من أن الجواب عند من تسأله هو : « نعم » ، فحين تقول لإنسان: أنت تخليت عنى فى محنتى . فيقول : ألم أزرك في يوم كذا ؟ ألم أعطك كذا ؟ ألم أصنع مع ابنك كذا ؟ فهو واثق أنك لا تستطيع إنكار شيء من هذا لأنه ثابت ثبوتاً حقيقياً .

ونلحظ هنا أن الحق جاء بالخطاب للغيبة فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ ﴾ ولم يقل : « أَلَمْ يَأْتِكُمْ » ، فسبحانه يخاطبهم ترقيقاً لهم ، ثم يتكلم عنهم مرة ثانية وكأنهم غائبون . وكأن هذا أيضاً مزيد من حرص رسول الله ﷺ فى غيبتهم ، فهو ﷺ حريص على هدايتهم.

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ والنبأ : هو الخبر الهام . ونحن لا نقول عن كل خبر : نبأ ، بل نقول عن الخبر الهام فقط إنه نبأ ، والنبأ أصله من النبوة ، والنبوة واضحة ظاهرة وليست مطموسة ؛ ولذلك فكل شيء هام ظاهر قد حدث يقال عنه نبأ . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ ﴾ [النبأ]

ولا يوجد نبأ أعظم من نبأ يوم القيامة.

وقد جاء الحق سبحانه وتعالى بالقضية الأولى التى كان الخطاب فيها مباشراً كقضية عامة ، وجاء بالقضية الثانية التى تكلم فيها عنهم غَيْباً كقضية خاصة .

ثم حدد الحق سبحانه المقصود بالذين من قبلهم ، وهم قوم نوح الذين أغرقهم الله بالطوفان . وكان قوم نوح كلما مروا عليه وهو يصنع السفينة سخروا منه ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى ردّاً على من سخروا من نوح :

﴿ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [هود]

أى أنتم يا من تسخرون من نوح عليه السلام جاهلون بالغيب ، ولكن الله أعلم نوحاً وقومه بما سوف يكون ، ولذلك فالسخرية الحقيقية هى من أولئك الذين رفضوا الإيمان ، ولم يعلموا بما أعده الله لهم .

ثم ذكر الحق بعد ذلك عاداً وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين وهم قوم شعيب ، والمؤتفكات أى قوم لوط . ومعنى المؤتفك أى المنقلب . وقد جعل الله عاليها سافلها . ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النجم]

أى : كانت عالية فأنزلها للهاوية . والإفك هو الصرف عن الحقيقة ، كما قالوا لإبراهيم :

﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأحقاف]

أى : لتصرفنا عنهم .

ما قصة هؤلاء الأنبياء وأقوامهم ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أى أن قوم نوح وقوم إبراهيم وغيرهم أتتهم رسالات السماء ولم تأتهم الرسالة كمنهج فقط ، بل جاءتهم معجزات تثبت صدق بلاغ الرسل عن ربهم ، فكأنه لا حجة لهم أن ينصرفوا عن منهج السماء أو أن يكذبوا به ؛ لأن كل منهج مُؤيَّد بمعجزة تثبت صدق الرسول فى رسالته . وقد تتابع هؤلاء الرسل على البشر ليهدوهم إلى منهج السماء ، ويبينوا لهم طريق الحق . وكان تعدد الرسالات فى أول الخلق ؛ لأن العالم كان منعزلاً عن بعضه البعض ، حتى إن أقواماً عاشوا على الأرض في زمن واحد وأماكن متفرقة ؛ ولم يعلم أحد منهم عن الآخر شيئاً ، ولكن العالم الآن اتصل ببعضه البعض ، بحيث إذا وقعت الحادثة فى مكان ، نراها عن طريق الأقمار الصناعية فى ثوان ، وربما فى نفس الوقت الذى تحدث فيه ؛ إن كان الحادث مُعداً له مسبقاً ، وقد رأى العالم كله أول إنسان ينزل فوق سطح القمر فى نفس اللحظة التى نزل فيها .

وعندما كان العالم يعيش فى انعزال، كانت كل بيئة لها لون من المعصية والفساد ، فكان الرسول يأتى ليحارب هذا اللون من المعصية والفساد الموجود في بيئة معينة ، ولا يوجد هذا اللون من المعصية والفساد فى بيئة أخرى .

ولكن عندما توحد العالم توحدت الداءات ؛ فالداء يظهر فى أمريكا مثلاً ، وبعد فترة قصيرة جـدّاً يظهر فى أوروبا أو فى مصر . ولذلك كان لابد أن يأتى رسول واحد ؛ لأن الداءات أصبحت واحدة ، واقتضى الأمر وحدة المعالجة ؛ لذلك كانت رسالة رسول الله ﷺ رسالة عامة لكل الأزمان وكل الأمكنة .

وحين يقول سبحانه : ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ فالبينات هى الشىء الذى يبين لك ما هو الحق ، والمعجزات التى صاحبت الرسالات السماوية بيَّنتْ وأكَّدتْ أن الرسول مُبلِّغ عن ربه ، وكانت المعجزة واضحة تماماً ليراها كل قوم رؤية تسمح باستيعابها . ولذلك كان كل رسول يأتى بآية يُجمع الكل على أنها معجزة . فأنت قد تأتى بشىء عجيب ، ولكن لا يُجمع الناس على أنه معجزة ، فعندما اختُرع الفانوس السحرى ، قال بعض الناس: إنه شىء عجيب . وبعضهم قال : إنه خداع نظر . ولكن معجزات الرسل لابد أن تستوعبها كل مستويات العقول ، يستوعبها المتعلم والذى لم يقرأ حرفاً فى حياته ؛ لأن الدين دين فطرة يخاطب أكبر العقول وأكثرها علماً كما يخاطب عقل البدوى الذى يقضى حياته كلها فى الصحراء ؛ لا يعرف شيئاً ولم يَعِشْ حضارة ولم يدرس علماً .

إذن: فالمعجزات لابد أن تكون واضحة لكل المستويات ؛ حتى لا يكون هناك عذر لأحد . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ ، وهذا دليل على أن الحق سبحانه وتعالى يحاسبهم على قدر استيعابهم للمعجزة ، فكأن كل العقول قد فهمت وأيقنت أن هناك معجزة . والذين استقبلوا المعجزة بالكفر ظلموا أنفسهم ؛ لأنهم بعد أن استوعبوا المعجزة ، وتحققوا أنها خَرْقٌ لقوانين الكون ولا يمكن أن يأتى به إلا الله سبحانه وتعالى ، ولكنهم رغم ذلك رفضوا الإيمان .

ويقول الحق عنهم: ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ والظلم أنك تأخذ حقّاً وتنقله إلى الباطل . ولكن الحقوق مختلفة ، فأىُّ حق ذلك الذى نقلته إلى الباطل ؟ إنه حق الوجود الأعلى الواجب الإيمان به وعبادته .

وكيف يظلم الإنسان نفسه ؟ يظلم الإنسان نفسه حين تُزيِّن له النفس شهوة فيرتكبها ؛ ليأخذ لذة عاجلة ويحرمها من نعيم دائم. وهناك من يظلم نفسه بظلم غيره ، مثل شاهد الزور [1] ؛ هذا الذى ينصر صاحب باطل على صاحب حق . ومن يشهد الزور يسقط حتى فى عين ذلك الذى شهد له . فإن جاء ليشهد أمامه فى قضية ، فهو لا يقبل شهادته وينظر إليه باحتقار ، وكان يجب على كل من يطلب من إنسان شهادة زور أن يضربه ؛ لأنه يريد أن يسقطه فى نظر الناس ، وفى نظر هذا الذى شهد من أجله ؛ لأن شاهد الزور حين أعان إنساناً على خَصْمه ، فالكل ينظر إلى مثل هذا الشاهد بالاحتقار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾

جاءت هذه الآية بعد آية سابقة وُصِفَ فيها المنافقون فى قوله تعالى :

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ... ﴿٦٧﴾ ﴾ [التوبة]

فناسب أن يقابلهم بالمؤمنين والمؤمنات ، وتلك مناسبة الضد بالضد ؛ لأن قياس الضد إلى ضده يُظهر الأمرين معاً . والمثال قول الشاعر حين

(١) عن أبى بكرة قال قال النبى ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ (ثلاثاً) قالوا : بلى يا رسول الله. قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين - وجلس وكان متكئاً فقال - : ألا وقول الزور . قال : فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٦٥٤) ومسلم (٨٧).